

التصوير الفني الباهت للتراث في شعر ابن نباتة خاصة مدائحه النبوية^١

سيد محمد أميري^{*}

الملخص

عاش ابن نباتة في فترة الانحطاط؛ فاصطبغ شعره بالصبغة التي كانت عليها الأشعار في تلك الفترة، من تقليد وتكرار واستخدام ما لا يصلح أن يكون مادة في الشعر. أما تقليده، فقد كان من كبار الشعراء؛ كامرئ القيس، وطرفة بن العبد، وخنساء، وحسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وأبي تمام، والمنتبي وأبي نؤاس. وأما التكرار، فقد ظهر في المعاني المكررة الكثيرة في ديوانه. نذكر على سبيل المثال، المعاني المتكررة التي ذكرها في مدح الرسول ﷺ، والمعاني التي كرّرها في مدح أمراء زمانه المختلفين. وأما ما لا يصلح أن يكون مادة في الشعر، فهو استخدامه لمصطلحات أدبية من نحو وعروض ومصطلحات علم الحديث أو الرجال ومصطلحات صوفية. قد استفاد ابن نباتة من القرآن والحديث معنى واقتباساً؛ فبرز المفهوم الديني جلياً في ديوانه نزولاً منه عند رغبة الأوساط الأدبية والناس آنذاك؛ لأن المفهوم الديني كانت له منزلة، ولا بد للشاعر أن يلبي هذا الطلب، وأن يقف عند هذه الرغبة العامة؛ كما أنه صور لنا الجانب اللاأخلاقي في زمانه بأشعار ماجنة، وهي كثيرة في ديوانه.

المفردات الرئيسية: ابن نباتة، الأسلوب الشعري لابن نباتة، التصوير الفني، التراث عند ابن نباتة

المقدمة

فترة الانحطاط لها ميزاتها الخاصة، وآثارها في جوانب الحياة كافة. ومنها الشعر، لما طرأ عليه من ضعف وسقوط لأسباب كثيرة - كتفشي العجمة، والرطانة، وخمول الأذهان، وإزراء الملوك بالشعر والشعراء -، ولما كان من هجوم التتر من أثر عظيم في عدم إقبال العام والخاص على الشعر.

١- تاريخ التسلم: ١٣٨٧/٨/٢ هـ. ش (٢٣/١٠/٢٠٠٨ م)؛ تاريخ القبول: ١٣٨٨/١/٢٩ هـ. ش (١٨/٤/٢٠٠٩ م).

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد - نجف آباد.

ولذلك ابتعد الشعراء عن الابتكار، وأخذوا يقلدون القدامى، ويجذون حذوهم في كل شيء، ولا يضيفون على ديوان الشعر العربي إلا مضامين رتيبة مملة، قد أساءوا استخدامها في كثير من الأحيان. حاولنا في هذه المقالة المتواضعة كشف هذه الجوانب عند أمير شعراء تلك الفترة، وهو الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري الذي عاش طويلاً في بلاط الحكام، وقضى فترة من الزمن طويلة يسافر فيها من بلد إلى بلد، ومن بلاط إلى بلاط حتى عاد إلى مصر أخيراً، ومات فيها عن سن يناهز ٨٠ عاماً.

التقليد في شعر فترة الانحطاط

الشعر الحلي هو ما كان امتداداً لماضيه متماشياً مع المستجدات والمستحدثات في حاضره. وهو يأخذ من الماضي والجذور، ويستمد منه طاقاته، ثم يتجاوز مع ما يجري في الواقع، لكن شعر هذه الفترة لم يستطع أن يلائم بين هذين الشقين؛ فقد كان أخذه واستمداده من التراث تقليداً بحثاً أفقد الشعر الابتكار والحيوية، وصارت محاشاته لواقع الحياة تكلفاً أنزل الشعر عن مستواه حتى «كان التكليف والتقليد أظهر خصائص هذا الشعر دون الجمود الذي استولى على القرائح، فقطع ما بينها وبين الابتكار، ووقف بالشعراء عند أساليب المتقدمين ومعانيهم» (البستاني، دت، ص ٢١٥).

فقد ظلت الموضوعات القديمة المألوفة تسيطر على الشعر والشعراء؛ كأنما هناك إصرار قوي على أن تظل للشعر العربي شخصيته، لكن مصطنعة غير حقيقية، وتبقى موضوعاته، لكن تقليدية مكررة غير أصيلة.

ولقد لاحظ أدباء العصر المملوكي صعوبة الابتداء؛ لأنهم وجدوا أنهم مسبقون إلى المعاني، لكن ذلك لم يدفعهم إلى اليأس؛ ففي المقدمة الغزلية للمدحة النبوية نجد شعراء يذكرون معاني اعتاد سابقوهم ذكرها في مقدمات قصائدهم المدحية، أو في قصائد الغزل الخالص؛ مثل: معاني الاستسقاء لماضي الزمان، والتلهف على أحوال سالفة؛ كقول ابن نباتة:

سقى الله أكنافَ الغضا سائلَ الحبا وإن كنتُ أسقي أدمعاً تتحدّرُ
وعيشاً نضا عنه الزمانُ بياضه وخلفه في الرأس يزهو ويزهّرُ

(محمد، ١٩٩٩م، ص ٢٩٤)

ومن أجل أن يعوّض الشاعر عما في شعره من ضعف في المعنى والأسلوب، أخذ يتلاعب بالألفاظ، ويستخدم المحسنات البديعية، وسيلة للتغطية على هذا الضعف. فجاء الشعر مليئاً بالمحسنات من جناس وتورية وما إلى ذلك من البديعيات.

وجرى الشعر في طريقتين؛ هما: الإباحية والزهد. وكان على كل حال تقليداً واقتباساً مع زيادة في الزخرفة؛ لأن الزخرفة أصبحت كل شيء في الكتابة والشعر. والشاعر الشاعر من تفوق على غيره في تكديس المحسنات، وتركيب الأسجاع، ووصف التوريات؛ والإكثار من الأجناس» (الفاخوري، ١٩٨٩م، ص ٣٨٦).

التصوير الفني الباهت

انعكس التراث الجاهلي والعباسي في شعر ابن نباتة انعكاساً واضحاً. فقد كان الشاعر يعبر عن مضامين ذلك التراث، ومن أجل أن يكون اقتباسه هذا ثميناً مقبولاً، يسلك طريقتين في ذلك؛ وهما:

أولاً. استخدام أشعار ذات صور فنية وأدبية عالية كانت قد أخذت مكانتها في الأوساط الأدبية؛ كاستخدامه لمضامين عدد من المعلقات، وأشعار المتنبي الراقية، وباقي الشعراء الآخرين الذين أخذوا مكانة عالية بين المتأدبين؛

ثانياً. استخدام معان ذات أثر نفسي قوي عند المسلمين العرب ؛ وذلك فيما يتعلق بالرسول الكريم ﷺ في مدحه ، من ذكر معجزاته ، وتفضيله على سائر الأنبياء. وبهذا المضمون القيم المحبب لدى نفوس المسلمين أراد الشعراء أن يعوضوا عما في شعرهم من الضعف.

هناك أسلوب آخر سلكه الشاعر ابن نباتة ، وهو استخدامه مصطلحات أدبية وعلمية وصوفية من أجل أن يزود شعره بثروة معنوية زخمة ، غير أن هذه المصطلحات لا تصلح أن تكون مادة للشعر ؛ لبعدها عن الخيال ، ولفقدتها مقومات الكلمة الشعرية التي يجب أن تخاطب القلب والأحاساس والعاطفة قبل كل شيء ، بينما هذه المصطلحات تشغل بالعقل والاستدلال أكثر من انشغالها بهذه المكونات الشعرية.

فلنترك البحث في هذا الجانب من شعره ؛ لأنه لا يتناسب مع عنوان بحثنا الذي نحن بصدده ، وهو الكشف عما في هذا الشعر من أثر التراث.

ولنستشهد الآن بما أفاد الشاعر من أشعار كبار الشعراء ، نبحتها على الترتيب التاريخي على عادة دارسي قضايا تاريخ الأدب العربي.

١. تقليده لشعراء جاهليين

١.١. قال امرؤ القيس في مطلع معلقته :

قفًا نَبك من ذكري حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(السابق، ص ٢٥)

أخذ ابن نباتة قسماً من هذا البيت ، وصاغه صياغة أخرى في ثلاثة أبيات له ؛ وهي :

يُذَكِّرُنِي مَعْنَى جِماهُ جِمالُهُ فَلِلَّهِ ذِكْرِي مِنْزِلٍ وَحِيبِيبِ

(ابن نباتة، دت، ص ٤٩)

أحباءُ ساروا قبلنا لمنازل فيا صاحبي رَحلي قفا نبك من ذكري

(السابق، ص ١٩٤)

فقلتُ لجنفني البعيدُ كراهما قفا نبك من ذكري ديار وجيران

(السابق، ص ٤٩٤)

كان الصفدي من معاصري ابن نباتة ، وقد كان مشهوراً بكثرة سرقاته من أشعار ابن نباتة. فكتب الأخير كتاباً سماه *خبز الشعير* يُوخ فيه الصفدي على ذلك.

وأرسل الصفدي إلى ابن نباتة بقصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس، مفتتحاً لها بقوله :

أفي كل يوم منك عتب يسوءني كجلمود صخر حطه السيل من علي

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقات منه في كتابه *خبز الشعير*. وصنع ابن نباتة صنيعه، فردّ عليه بقصيدة من نفس الطراز، شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس. واستهلها بقوله :

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
بروحي أفاظ تعرّض عتبها تعرّض أثناء الوشاح المفصل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(ابن نباتة، دت، ص ٣٩٢؛ نقلاً عن: ضيف، دت، ص ٢١٦)

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
يقولون لا تهلك أسي وتجدد

(طرفة، ١٩٩٤م، ص ٨٨-٨٩)

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

(السابق، ص ١٢٠)

ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لخولة أطلالاً ببرقة ثمهد

(ابن نباتة، دت، ص ١٢٨)

ناديت: لا تهلك أسي وتجدد

(السابق، ص ١٥٥)

كأنه علم في رأسه نار

(١٩٩٣م، ص ٢٦٠)

ما يقاسي من الألم
وهي نار على علم

(ابن نباتة، دت، ص ٤٧٦)

هناك ظاهرة قديمة العهد في الشعر العربي تسمى في البديع «التصريح»، وهو أن تكون قافية الشطر الثاني هي قافية الشطر الأول نفسها وزناً وروياً وشكلاً. وهو في الشعر مستحسن، لكنه غير ضروري، وقد استفتح به جميع المعلقات وأكثر قصائد الجاهلية؛ وهذا هو المكان الأكثر استحباباً للإتيان بالتصريح، لكن هذه القاعدة البديعية التي كانت تأتي عفوية نادرة، صارت كغيرها من القواعد البديعية في عصر الانحطاط أداة تعبيرية مملة أكثر الشعراء من الإتيان بها.

أما ابن نباتة، فقد استهل ديوانه بقصيدة مصرّعة، ليستمر التصريح في كثير من قصائده.

من ذاك القبيل قصيدة طويلة كل أبياتها مصرّعة، قالها ابن نباتة في أبي مصري، وهو أحد شعراء زمانه، واقترح عليه وزنها وقافيتها؛ مطلعها:

أوقني في النيران
وللشجون أفنان

وهارب من رضوان
والحسن شيء فتان

فأخيين ودأ كان كالرسم عافياً

٢.١. قال طرفة بن العبد في مطلع معلقته:

لخولة أطلالاً ببرقة ثمهد
وقوقاً بها صحي علي مطيهم

ثم واصل الكلام في آخرها وقال:

سبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

وأفاد الشاعر ابن نباتة من هذه الأبيات، وصاغها بهذه الصورة:

تحدثك الأنفاس فيها عن ألما
فشم بارقاً قد خولتكم ولا تشم

أهملت منها ما أردت وبعضها

٣.١. قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وان صخرأ لتأتم الهدأة به

أخذ المعنى ابن نباتة وقال:

لي صديق يسووني
كيف يخفي شجونه

وجَلَّ صنَعُ الرحمنُ

خالقُ قَدِّ الأُبدانِ

(ابن نباتة، دت، ص ٥٠٨؛ نقلاً عن: يوسف، ٢٠٠٣م، ص ٣٠١)

٢. تقليده للشعراء العباسيين:

استفاد شعراء عصر الانحطاط من شعراء العصر العباسي كثيراً لأسباب عديدة. منها لأن أولئك الشعراء خلفوا أعمالاً شعرية خالدة وعظيمة من الناحية الفنية؛ ولأن الشعر العباسي مليء بالمضامين الدينية التي أولع بها شعراء عصر الانحطاط. وأخيراً لأن جلّ شعراء العصر العباسي كانوا في بلاطات الحكام، ويتعاملون مع هذه الفئة الحاكمة، وقد أحسنوا معاملتهم، وهي الحال نفسها التي كان عليها شعراء عصر الانحطاط؛ بمعنى أن شعراء العصر المملوكي أيضاً يرتادون بلاط الحكام، فنظروا إلى شعر الشعراء العباسيين، ليأخذوا منهم ما أرضوا به حكّام زمانهم.

١,٢. قال أبو تمام في مدح المعتصم عند فتح عمورية:

السيفُ أصدقُ إنباءٍ من الكتب

في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعب

(أبو تمام، ٢٠٠٠م، ص ٣١)

قال ابن نباتة في الأسلوب نفسه:

وكلمثنا سيوفُ الكُتبِ قائلَةٌ

ما السيفُ أصدقُ إنباءٍ من الكُتبِ

(ابن نباتة، دت، ص ٤١)

٢,٢. قال المتنبي:

يا أُختَ خَيْرِ أخٍ يا بنتَ خَيْرِ أبٍ

كنايةً بهما عن أشرفِ النُسبِ

(البرقوقي، دت، ص ٤٨)

وقال ابن نباتة:

جادتُ ضريحك للرضوانِ غادية

يا أُختَ خَيْرِ أخٍ يا بنتَ خَيْرِ أبٍ

(ابن نباتة، دت، ص ٤٨)

قال المتنبي:

لكلِّ امرئٍ من دهره ما تَعوِّدا

وعادة سيفِ الدّولةِ الطَّعْنُ في العدى

(شيخو، ب دت، ص ٤٨)

وقال ابن نباتة:

فعدادتُ سيفِ الدّولةِ الطَّعْنُ في العدى

وعاداتُ ذا الطَّعْنُ في العدى والأحبة

(ابن نباتة، دت، ص ٤٣٥)

قال المتنبي:

وا حرَّ قلباه مِّن قلبه شَبِمْ

ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

(العكبري، آدت، ص ٣٦٢)

قال ابن نباتة :

يزهُو الشَّامُ بَمَنْ فارقَتْ طَلْعَتُهُ وا حَرَ قلباهُ مَن قلبه شَمِيمٌ

(ابن نباتة، دت، ص ٤٣٥)

قال المتنبي :

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلِ الهوانُ عليه ما ليجرَحُ يَمِينُ إيلامُ

(العكبري، ب د ت، ص ٩٤)

قال ابن نباتة :

جَرَحَوْهُ فَمَا تَأَلَّمَ جُرْحاً ما ليجرَحُ يَمِينُ إيلامُ

(ابن نباتة، دت، ص ٤٣٥)

للمتنبي أسلوب في المدح، وهو أن يشرك نفسه في مدح من يمدحه، مما سبب إزعاجاً عند سيف الدولة. وبما أن المتنبي وأساليبه الشعرية لاقت قبولاً حسناً عند الأوساط الأدبية ومن ذلك إشراك النفس في المديح «فلا يفوت الشاعر (ابن نباتة) إشراك نفسه في موضوع المدح تمشياً مع مذهب أبي الطيب الذي أصبح قاعدة عامة لدي الشعراء الذين جاؤوا بعده؛ فأفاد ابن نباتة من هذا الأسلوب، وجاء به في شعره حيث قال :

وَأَنْشَدْتُ أَمْداحاً تَقُولُ لِمَنْ أَتَتْ مَدَحْتُكَ بِالشُّعْرِي وَغَيْرِكَ بِالشُّعْرِ

(ابن نباتة، دت، ص ١٩٨؛ نقلاً عن: الأيوبي، ١٩٩٥م، ص ١٠٨)

كما قال في مكان آخر :

أَصَوْغُ عَلَى الدُّرِّ اليتيمِ مَدائحاً أَعَدُّ بِهَا مِنْ صاغَةِ الشُّعْرَاءِ

(ابن نباتة، دت، ص ١٥)

لعل ابن نباتة هو واحد من أكبر شعراء العصر اعتزازاً بشعره. فهاهو يعتدُّ بشعره كما اعتدَّ من قبله المتنبي قائلاً :

مَنْ مُبْلِغُ العُربِ عن شعري ودولته إِنَّ ابْنَ عِبَادِ باقٍ وابنَ زيدونا

وفي سياق مدحه الملك المؤيد، صاحب حماة، افتخر ابن نباتة بشعره وقريضه فقال مبالغاً :

تَعَلَّمْتُ أنواعَ الكلامِ برفده فأصبحتُ أعلى الناسِ شعراً وأحسناً

(ابن نباتة، دت، ص ٤٨٩)

وكثيرة هي مفاخر ابن نباتة التي جعلها خواتم شعره، لاسيما في مدائحه التي هيمنت على موضوعات ديوانه. منها واحدة ختم بها مدحة كادت أن تبلغ خمسين بيتاً. فبعد أن عدَّ محامد ومدوحه وفضائله عليه قال :

وكم أنطقتُ نَعْماءَ مَنِي مَدائحاً سَرَى ذِكْرُها غريباً وشرقاً فأذلجا

أبا الخير خُذْها مِنْ ثنائي كرائمِ أبْتِ عن سوي أكفائها أن تَزَوَّجا

أوايسُ أبكارُ يَحِقُّ لِحُسْنِها على ساكنِ الأمصارِ أن يتبرَّجا

(ابن نباتة، دت، ص ٩١؛ نقلاً عن: يوسف، ٢٠٠٣م، ص ٣٦٥)

٣. قال أبو نؤاس «قصيدة يعرض فيها بالنظام شيخ المعتزلة لتشده في أمر الغفران، وبتهمه بالكفر وتحقير الدين :

دَعُ عنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وداوِني بالتي كانت هي الداءُ

صفراء لا تنزلُ الأحزانُ ساحتها

لو مسَّها حجرٌ مسَّته سراءُ

(شيخو، ب د ت، ص ٥٤)

وقال ابن نباتة يمدح قاضي القضاة تقي الدين السبكي (المتوفي ٧٥٦هـ)، والد الكاتب الفقيه تاج الدين السبكي، مضمناً قول أبي نؤاس في همزيتة:

لو مسَّ تهذيبه أو رفقَه حجراً

مسَّته في حالتيه ألفُ سراءُ

ون بيت فصل صحيح الوزن قد رجحت

به مفاخرُ آباءٍ وأبناء

...

إن أقطع الليل في مدحي له فلقد

حمدتُ عند صباح البشرِ إسرائي

...

يا جاحداً رامَ أن تخفى له ومنن

هياتلاً ما المسكُ مطويّاً بإخفاء

(ابن نباتة، د ت، ص ٩-١٠؛ نقلاً عن: الأيوبي، ١٩٩٥م، ص ١٠٥)

كما قال ابن نباتة يمدح الملك الأفضل الأيوبي ويعزيه بوالده الملك المؤيد صاحب حماة:

هنا ما ذا العزاء المقدماً

فما عبسَ المحزون حتى تبسماً

ثغورُ ابتسام في ثغور مدامع

شبهان لا يمتاز ذو السبق منهما

نردُّ مجاري الدمع والبشر واضح

كوابل غيث في ضحى الشمس قد همى

(ابن نباتة، د ت، ص ٤٢٩)

وما كان ذلك إلا تقليد لعبدالله بن همام وأبي نؤاس؛ إذ إن

باب التعزية بالملك الراحل والتهنئة بالملك القادم قديم في الشعر، وقد فتح هذا الباب للشعراء عبدالله بن همام السلولي؛ فإنه لما مات معاوية، تولى يزيد ابنه، ولم يقدم عليه أحد على تعزيته حتى قام عبدالله بن همام فقال:

اصبرُ يزيدُ فقد فارقتَ ذا ومقّة

واشكرُ حباءَ الذي بالملك حاباكاً

لا رزءَ أعظم في الأقوام قد علموا

مما رزئتَ ولا عُقبى كعقباكاً

وبعده قال أبو نؤاس يهنئ الأمين بالخلافة بعد موت الرشيد:

جرت جوارٍ بالسعد والنحس

فالناس في وحشة وفي أنس

والعين تبكي والسُنُّ ضاحكة

فنحن في مأثم وفي غرس

يضحكها القائمُ الأمين ويبيكي

ها وفاة الرشيد بالأمس

(الركابي، ١٩٩٦م، ص ١٨٧-١٨٨)

قد عُرف أبو نؤاس بطردياته في الأدب العربي، والشعراء الذين أتوا بعده قلّدوه في وصف الطرد والقنص، وشاعرنا لم تفتّه هذه أيضاً؛ فقد قلّده في وصف الصيد وساحة القنص، وما استخدمه من وسائل فيه.

فقد خرج مع الأفضل في رحلة صيد. فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة بيت وصف فيها رياض حماة؛ ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق مثل قوله:

وكلُّ شاهين شهّي المرتقى

كبارقٍ طار وصوب قد همى

بيننا تراه ذاهباً لصيده

معتصماً بأيده وكيده

حتى تراه عائداً من أققه
وكلّ صَقْرٍ مُسْبِلِ الجناح
ذو مُقْلَةٍ لها ضِرَامٌ واقِد
كأنما المِخْلَبُ منه ومنجَل
وكلُّ منسوب إلى سلوق
طاوي الفؤاد ناشر الأظافر
يَعْضُ بالبيض ويخطو بالقنا
ملتزماً طائرَه في عنقه
مُواصل الغُدُوّ والرواح
يكاد يشوي ما يصيد الصائد
لِحَصْنِ أعمار الطيور مُرْسَل
أهت وتاب الحُطَى مشوق
يا عجباً منه لطاوي ناشر
ويسوقُ الوهمَ لإدراك المنى

ولمّا تمثّلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة، على أن أرجوزة الطرد المليئة بالألفاظ الغريبة عند أبي نؤاس ومن جاؤوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة (ضيف، دت، ص ٢١٥-٢١٦).

وضمن ابن نباتة لأبي نؤاس فقال:

وحَسْبُ حالي إنْ كانَ الصدودُ رَضَى
وهاك يا ساكناً قلبي كؤوسَ طلا
فداوني بالتي كانت هي الداءُ
لو مَسَّها حجرٌ مَسَّته ضراءُ

(ابن نباتة، دت، ص ١٦؛ نقلاً عن: يوسف، ٢٠٠٣م، ص ٣٠٦)

وفي تشبيه الهلال بأشياء بديعة تزيد على سبعين تشبيهاً. واعتنى الشيخ جمال الدين بن نباتة بجمع بعضها في قصيدته الرائية التي امتدح بها الملك المؤيد صاحب حماة، والتي أولها:

يا شاهرَ اللَّحظِ حَبِيّ فيك مشهورُ
وكاسيرَ الجُننِ قلبي منك مكسورُ

أما هذه التشبيهات التقليدية التي جمعها الشاعر في القصيدة المشار إليها، فقد وردت في قوله:

كأنَّ شَكَلَ هلال العيد في يده
أو مِخْلَبٌ مَدَّه نَسْرُ السَّماءِ لهم
أو مِنْجَلٌ لِحِصَادِ القومِ منعطف
وهاك يا ساكناً قلبي كؤوسَ طلا
أو نَعْلٌ تَبِرُ أجادت في هَدْيَتِه
أو رَاكِعُ الظهْرِ شِكرًا في الظلامِ على
أو حاجِبٌ أشمط يبني بأنَّ له
أو زورقٌ جاء فيه العيدُ منحدرًا
أو لا، فقلُّ شِفَّةً للكأسِ مائلة
أو لا، فنصف سوارٍ قام يَطرحه
أو لا، فقطعة القيد فُكَّ عن بَشْرِ
أو لا، فمن رمضانَ النونُ قد سقطت

بلغت التشبيهات الهلالية التي جمعها الشاعر أحد عشر تشبيهاً (ابن نباتة، دت، ص ١٨٦؛ نقلاً عن: باشا، ١٩٩٩م، ص ٣٨٠).

البديعيات عامة

كان للبديعيات أو المدائح النبوية حظ وافر في أدب عصر الانحطاط؛ فلا تجد شاعراً إلا وقد تطرق إلى هذا الموضوع، وصاغ ما استطاع صياغته: «إن المديح النبوي في العصر المملوكي قد أضحى فتناً شعرياً مستقلاً، له أصوله وقواعده، وله شعراؤه الذين وقفوا شعرهم عليه» (محمد، ١٩٩٩م، ص ٢٠٧)، إلا أن البديعيات كسائر شعر هذه الفترة لم تسلم من التبعية والتقليد؛ فجاءت على نفس الطريقة التي كانت عليها في العصور السابقة: «إننا نلاحظ أن شعراء العصر في مدائحهم النبوية قد التزموا الأصالة؛ فاقترفوا آثار سابقينهم، والتزموا منهج الفحول أسلوباً ودرياً؛ فنسبوا وتشببوا ووقفوا على الأطلال، عانوا مشاق السفر وكابدوا الأهوال...» (يوسف، ٢٠٠٣م، ص ٣٥٣)، ولكن هذا لا يعني أنهم قد انسبوا انسياً بحتاً، ولم يأتوا بشيء يُذكر في هذا الإطار، بل سعوا إلى أن يصبغوا تقليدهم بما يتناسب مع متطلبات عصرهم، إلا أن هذه المتطلبات لم تكن سوى تغييرات في ظاهر الكلام دون المساس بروحه التراثية، ودون إعطائه صبغة تتلائم مع مواصفات الشعر الحاصل على مقومات تامة، حتى نستطيع أن نسميه مستقلاً بذاته.

وعاد الشعراء إلى الشعر العربي القديم يحاكونه ويعارضون قصائده ويضمنون أبياته ويستعينون به على أغراضهم. فجاءت بعض قصائدهم خليطاً غريباً من الشعر القديم ومن صنعة عصرهم. فهم يريدون إظهار معرفتهم بالتراث الشعري، وبراعتهم في استخدامه ليعطيهم ذلك نوعاً من الأصالة. ويريدون إثبات مقدرتهم على اصطناع فنون البديع التي فُتت بها أهل عصرهم»

(محمد، ١٩٩٩م، ص ٣٧٨)

فجاءت قصائدهم معنيةً بجزئيات العمل الأدبي دون وحدته وأهدافه. فالقصيدة عامة ليست مترابطة الأجزاء، ولا متناسقة البناء. الشاعر فيها مشغوف بغرض من أغراض الشعر مثل المدح، مغرق فيه، مهالك عليه، لا ينظر إلى ما يحيط به من الأحداث، ولا يهتم بمعالجة الموضوعات التي تهتم الشعر، ولا يحاول التقاط الأحداث الهامة التي يعاني منها مجتمعه الإقليمي الخاص، والديني العام، حتى يكون الشعر في خدمة الأمة. فالشعر يجب أن يكون له مفهوم ووظيفة ومتمعة تخدم الفرد والمجتمع والأمة، وتهيئ لها كل الأسباب التي تنتشلها من براثن المحن والتخلف؛ ثم تدفعها إلى الأمام في ميادين الرقي والتقدم. الشاعر في هذا العصر عامة لم يكن يحاول التخلص من الذاتية والانطوائية، ولم يكن يسعى إلى الانفتاح على مجتمعه بالتجديد في موضوعاته ومعانيه، بل بقي - كما كان سابقاً - يأخذ من سابقه لفظاً ومعنى؛ كما نرى عند شاعرنا في هذه السطور.

بديعيات ابن نباتة

قبل البدء بالبحث عن بديعيات ابن نباتة، لا بد من الإشارة إلى أن قصدنا من التطرق إلى بديعياته هو استكشاف ما فيها من تقليد للماضين في مدائحهم النبوية؛ ثم إرجاع هذه المضايمين إلى أصولها الأولى، ولا نقصد تحليل هذه البديعيات، وما فيها من مضامين.

لابن نباتة خمس قصائد في مدح الرسول الكريم ﷺ.

الأولي. الهمزية، ومطلعها:

وصب ما له في الصبر رأء

شجون نحوها العشاق فأؤوا

(ابن نباتة، دت، ص ١)

وتقع في تسعة وتسعين بيتاً.

والثانية. الرائية، ومطلعها:

صحا القلبُ لولا نَسْمَةٌ تَشْخَطُرُ
ولعةُ برقٍ بالفضا تتسَعَرُ

(السابق، ص ١٨٠)

وتقع في تسعين بيتاً، وهي خير ما في ديوانه.

والثالثة. العينية، ومطلعها:

يا دارَ جيرتنا بسفح الأجرع
ذكرتك أفواهُ الغيوث الهَمَع

(السابق، ص ٢٩٠)

وتقع في ثمانية وثمانين بيتاً.

والرابعة. اللامية، ومطلعها:

ما الطرفُ بعدكمُ بالنوم مكحولُ
هذا وكم بيننا من ربعكم ميلُ

(السابق، ص ٣٧٢)

وتقع في تسعة وسبعين بيتاً.

والخامسة. الميمية، ومطلعها:

أوجزُ مديحكُ فالمقامُ عظيمُ
من دونه المنثورُ والمنظومُ

(السابق، ص ٤٢٨)

وهي أقصر مدائحه وأضعفها.

إنه يعتبر من المقلّين في قول المدائح النبوية. وقد يكون أنه نظم بديعياته استجابة منه لطلب الأوساط الأدبية آنذاك التي أولت المدح النبوي أهمية كبرى، مما دفع الكثيرين إلى قول البديعيات، حتى ولو تعودوا على قول أشعار يتنافى مضمونها مع المدحيات؛ كما فعل الشاب الظريف الذي تعود على نظم أشعار مليئة بالمجون، ولكنه قال أشعاراً في مدح الرسول أيضاً.

بديعيات ابن نباتة مليئة بالمحسنات البديعية مما شاة مع ما فتن به أهل عصره، مليئة بال تكرار اللفظي والمعنوي. فهو قد كرر مضامين

مختلفة في قصائده؛ كذكره المتكرر لمعجزات الرسول وشجاعته وكرمه. تبدأ القصائد هذه على طريقة الجاهليين بالنسيب ووصف

الراحلة، إلا أن هناك إشارة من الشاعر إلى موضوع الحقيقة المحمدية، ومفهومها الغامض عند المتصوفة؛ إذ يقول:

تنقلُ نوراً بينَ أصلابِ سادّةٍ
فلله منه في سما الفضل نَيْرُ

به أيد الطهرُ الخليلي فانتَحَتْ
يداه على الأصنام تغزو وتكسرُ

ومن أجله جيءَ الدَّبِيحان بالفدى
وصينَ دمٌ بين الدماءِ مُطهرُ

(ابن نباتة، دت، ص ١٨٢؛ نقلاً عن: مبارك، دت، ص ٢٣٥)

وفي ذلك ما يدل على مدى أثر المتصوفة في تلك الفترة.

وهنا نريد الكلام عن أثر التراث العربي في مدحيات ابن نباتة. نبدأها بالبحث عن آثار حسان بن ثابت الأنصاري شاعر

الرسول الأول.

أثر حسّان بن ثابت :

نقل ابن نباتة في همزيتته التي يعرض بالكافرين البيت الثاني من قصيدة حسان دون أن يحدث فيه أي تغيير حيث يقول :

فقل للملحين تنقلوها
وإنّ أبي ووالده وعرضي
جَحِيماً إنّنا منكم بُراءُ
لِعِرضِ محمد منكم وقاءُ

«وفي هذا ما يشعر بأنه كان يعارض همزية حسان بن ثابت» (السابق، ص ٢٣١)؛ فإن حسان في همزيتته التي قالها في فتح مكة أشار في كثير من أبياتها إلى منكري الرسالة وتوعدهم فيها :

شهدتُ به وقومي صدقوه
فإنّ أبي ووالده وعرضي
فقلتم ما نُجيبُ وما نشاءُ
لِعِرضِ محمد منكم وقاءُ

(شبخو، آدت، ص ٢٨)

وقد عبّر الشاعر فيها صراحة عن تأثره بكعب بن زهير وحسان بن ثابت؛ إذ يقول :

فهل لي إلى أبيات طيبة مَطْلَعُ
أصوغ على الدرّ اليتيم مدائحاً
وحسان مدحي ثابت ورجائي
ببيت زهيرٍ حيث كعبٌ مباركٌ

(ابن نباتة، دت، ص ١٥؛ نقلاً عن: محمد سالم، ١٩٩٩م، ص ٣٧٨)

و في قصيدته العينية يرى نفسه خليفة حسان، فيقول :

إنّ كنت حسّاناً بمدحك نائباً
فسنالك أرشده وقال لي اتبع

(ابن نباتة، دت، ص ٢٩٣)

وفيهما يقول أيضاً :

ماذا عسى المدحُ الطهورُ يديرُ من
بعد الخواميم التي بثناها
كأس الثنا بعد الكتاب المترع
هَبَطتُ إليك من المحلّ الأرفع

والبيت الثاني من قصيدة ابن سينا في النفس، ومطلعها :

هبطتُ إليك من المحلّ الأرفع
ورقاءُ ذاتُ تدلُّ وتمتّع

(مبارك، دت، ص ٢٣٦)

أثر كعب ابن زهير

وأكثر قصيدة من قصائد المدح النبوي التي عورضت هي قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ. ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة؛ منها: أنها قيلت في رسول الله ﷺ أثناء حياته، وأثاب عليها؛ فمعارضتها تقرّب الشاعر من أن تكون قصيدته مقبولة عند مدوحه؛ ولأنها قصيدة قديمة احتفل بها كعب كثيراً؛ فمعارضتها تعطي الشاعر معرفة بالشعر العربي الأصيل، ويفيد منها شكلاً وموضوعاً ووزناً وقافية.

أفاد شاعرنا منها وقال قصيدة في معارضتها

بدأها بقوله :

ما الطَّرْفُ بعدكمُ بالنوم مكحولٌ هذا وكَم بيننا من ربعكم ميلًا
 ما يمسيك الهدبُ دمعي حين أذكركم إلا كما يُمسيك الماءُ الغرابيلُ
 وبعد أن يتغزّل على طريقة كعب، يضيف إلى مقدمته الوعظ وذكر الأماكن المقدسة، وينتقل إلى المدح على طريقة كعب، فيقول :
 إن لم أنل عملاً أرجو النجاة فلي من الرسول بإذن الله تنويلُ
 ويسهب في مدحه مضيفاً المعجزات والصنعة التي عرفت في عصره، حتى إذا وصل إلى الخاتمة، صرّح بمعارضته لكعب فقال :
 إن كان كعبٌ بما قد قال ضيفك في دار النعيم فلي في الباب تطفيلُ
 وأينَ كابن زهيرٍ لي شذا كلم ربيعها بغمام الغرب مَطلولُ
 هذه المعارضة مأخوذة من الشكل الشعري لقصيدة كعب، وهي بذلك شكل تقليدي. وأمّا ما أضافه الشاعر، فلا يخرج القصيدة عن
 أساسها الأصلي (محمد سالم، ١٩٩٩م، ص ٣٦٠).

هناك أمور تجدر بالإشارة إليها عند مقارنة هاتين القصيدتين، هي :

أولاً. إن ابن نباتة وعند تخلصه إلى المدح يتخلص على طريقة كعب ؛ فكعب عندما يبأس من كل أحد، يبني أمله كله على عفو
 الرسول وعطفه ؛ إذ يقول :

وقال كلُّ خليل كنتُ أمله لا ألبيتكُ إنني عنك مشغولُ
 فقلتُ خلوا سبيلي لا أبا لكم فكل ما قدّر الرحمنُ مفعولُ
 نُبئتُ أنّ رسولَ الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولُ

(شيخو، أدت، ص ١٤)

وقد تخلص ابن نباتة إلى المدح كذلك وقال :

إن لم أنل عملاً أرجو النجاة فلي من الرسول بإذن الله تنويلُ

(ابن نباتة، دت، ص ٣٧٣)

فهو يأمل النوال من الرسول، ولكن ليس من باب الجزاء، فهو يعترف صراحة بأن ليس لديه عمل يرجو النجاة به، بل أمله كله
 مبني على الرسول ورحمته.

ثانياً. أخذ الشاعر عن مقدمة كعب (الطرف المكحول) في قوله :

وما سعادُ غداةَ البين إذ رحلتُ إلا أغنُ غَضيفُ الطرفِ مكحولُ

نقل ابن نباتة معنى كعب من وصف الحسنة إلى وصف نفسه ؛ فحبيبة كعب طرفها مكحول، في حين أن طرف ابن نباتة لم
 يكتحل بالنوم. وهنا تبدو الصنعة في التورية في لفظة «ميل» ؛ إذ ورى بها عن البعد وأداة الكحل. فافتقدت ألفاظ كعب فصاحتها
 عند ابن نباتة ؛ إذ قال :

ما الطَّرْفُ بعدكمُ بالنوم مكحولُ هذا وكَم بيننا من ربعكم ميلًا

ثالثاً. أخذ ابن نباتة عبارات كاملة من قصيدة كعب مثل قوله في مدح الرسول ﷺ :

حتى أتى عربيّ يُستضاءُ به مُهتدٌ من سيوف الله مسلولُ

(السابق، ص ٧٤)

أخذه ابن نباتة من قول كعب:

إن الرسولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مهتدٌ من سيوف الله مسلولٌ

(شيخو، أدت، ص ١٦)

وكذلك قال كعب:

ولا تُمسكُ بالعهد الذي زعمت إلا كما يمسك الماء العرابيلُ

فأخذه ابن نباتة وقال:

ما يُمسك الهدبُ دمي حين أذكركم إلا كما يُمسك الماء العرابيلُ

وقال كعب:

كانت مواعيدُ عُقوب لها مثلاً وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

فاقتبسه ابن نباتة وقال:

باتت زخارفُها بالصبر واعدةً وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

مفاهيم تراثية عامة:

قصيدته التراثية هي خير ما قال في المدائح النبوية، وربما كانت خير ما في ديوانه من الشعر الجيد. وتمتاز هذه القصيدة بوضوح المعاني وقوة السبك، ولا بد أن يكون معاصروه تلقوا بكثير من القبول؛ لأنها بعث لروعة القديم. ولننظر كيف يقول:

صحا القلبُ لولا نسمةً تتخطرُ ولعةٌ برق بالغضا تتسعرُ
وذكرُ جبين البابليةِ إذ بدا هلالُ الدُجى والشيءُ بالشيءِ يذكُرُ
سقى الله أكنافَ الغضا سائلَ الحيا وإن كنتُ أسقي أدماً تتحدّرُ
وعيشاً نضا عنه الزمان بياضه وخلفه في الرأس يزهو ويزهَرُ
تغيرَ ذاك اللونُ مع مَنْ أجبه ومَنْ ذا الذي يا عزُّ لا يتغيرُ
وكان الصبا ليلاً وكنتُ كحالم فيا أسفاً والشيبُ كالصبح يُسفرُ
ويُنكرني ليلي وما خلّتُ أنه إذا وُضِعَ المرءُ العمامةُ يُنكرُ

والقارئ يجد في هذا الشعر العذب كلمات «الغضا»، و«البابلية»، و«العمامة»، ويجد كذلك عبارات: «ومن ذا الذي يا عز لا يتغير»، و«صحا القلب». وكل أولئك إشارات إلى معانٍ تحدّث عنها الشعراء الأقدمون (مبارك، دت، ص ٢٣٢).

وكلامه في الشطر الثاني من البيت الأخير يذكّرنا بخطبة الحجاج، والبيت الذي استشهد به في خطبته، وهو بيت سحيم بن وثيل:

أنا ابنُ جَلا وطلّاعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وقول ابن نباتة:

سقى الله أكنافَ الغضا سائلَ الحيا وإن كنتُ أسقي أدماً تتحدّرُ
وعيشاً نضا عنه الزمان بياضه وخلفه في الرأس يزهو ويزهَرُ

يذكّرنا بقول الشاعر:

سقى الله أياماً لنا ولياليأ مَضِينَ فلا يُرجى لهن طلوعُ

إذ العيشُ صافٍ والأحبةُ جيرةٌ

جميعٌ وإذ كلُّ الزمان ربيعٌ

(محمد سالم، ١٩٩٩م، ص ٢٩٤)

النتائج:

١. استقى الشعر في عصر الانحطاط مواضيعه وأساليبه من التراث؛
٢. كان استقاؤه من التراث تقليداً بحتاً ومماشاته للواقع تكلفاً؛
٣. أضاف هذا الشعر على التراث محسنات بديعية ومصطلحات لا تصلح أن تكون مادة للشعر؛
٤. ضعف الشعر بذلك ولم يتمكن من الإبداع؛
٥. أخذ ابن نباتة من التراث معنى واقتباساً وصبغه بصبغة العصر؛
٦. كان الحظ الأوفر للمتنبّي وأبي نؤاس في أخذه الكثير الكثير منهما؛
٧. أما في البديعيات، فقد أخذ من حسّان بن ثابت وكعب بن زهير؛
٨. هناك مفاهيم تراثية عامة في شعره تداولها الشعراء الأقدمون؛
٩. التصوير الفني عنده أضعف بكثير مما كان عليه في التراث؛
١٠. للتعويض عن ذلك استخدم البديع والمصطلحات العلمية ذريعة للتغطية على ذلك؛
١١. للتكرار وقع مسموع في شعره؛ سواء اللفظي أو المعنوي.



المصادر والمراجع

١. ابن نباتة، محمد بن محمد. (د ت). ديوان. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢. أبو تمام، حبيب بن أوس. (٢٠٠٠م). ديوان أبي تمام. (تحقيق إيمان السباعي). (ج ١). (ط ١). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
٣. الأيوبي، ياسين. (١٩٩٥م). آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي. (ط ١). طرابلس: د. ن.
٤. باشا، عمر موسى. (١٩٩٩م). تاريخ الأدب العربي: العصر المملوكي. بيروت: دار الفكر المعاصر.
٥. البرقوق، عبدالرحمن. (د ت). شرح ديوان المتنبي. (ج ١). بيروت: دار الكتاب العربي.
٦. البستاني، بطروس. (د ت). أدباء العرب. (ج ٣). بيروت: دار الجيل.
٧. الخنساء، بنت عمرو. (١٩٩٣م). ديوان. (شرح أبي العباس ثعلب). (ط ١). بيروت: دار الكتاب العربي.
٨. الركابي، جودت. (١٩٩٦م). الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار. بيروت: دار الفكر المعاصر.
٩. شيخو، لوئيس. (آ د ت). المجاني الحديثة. (ج ٢). (ط ٣). بيروت: دار المشرق.
١٠. _____ . (ب د ت). المجاني الحديثة. (ج ٣). (ط ٣). بيروت: دار المشرق.
١١. ضيف، شوقي. (د ت). تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات). (ط ٣). مصر: دار المعارف.
١٢. طرفة، ابن العبد. (١٩٩٤م). ديوان. (شرح سعد الضاوي). (ط ١). بيروت: دار الكتاب العربي.
١٣. الفاخوري، حنا. (١٩٨٩م). ديوان امرئ القيس. (ط ١). بيروت: دار الجيل.

١٤. العكبري، ابو البقاء. (آ د ت). شرح ديوان المتنبي. (ج ٣). بيروت: دار المعرفة.
١٥. _____ . (ب د ت). شرح ديوان المتنبي. (ج ٤). بيروت: دار المعرفة.
١٦. مبارك، زكي. (د ت). المدائح النبوية في الأدب العربي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
١٧. محمد، محمود سالم. (١٩٩٩م). المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي. بيروت: دار الفكر المعاصر.
١٨. يوسف، خالد إبراهيم. (٢٠٠٣م). الشعر العربي أيام المماليك. (ط ١). بيروت: دار النهضة العربية.